الأهرام

المصدر: الخليج

التاريخ : ١٣ مايو ٢٠٠٤

مـــرة أخـــرى حـــول حـــوار الثقافـــات

عزمي بشارة

حالة «ابو غريب» ليست حالة تلذذ بتسبيب الألم فحسب ولا حالة انحراف، إنها حالة تعذيب وخرق للمواثيق والأعراف الدولية يقوم بها جنود يمثلون دولة وينفذون سياسة، إنها نتاج للوحدانية الامبراطورية يتكرر بانماط مختلفة.

رفضت الولايات المتحدة التوقيع على معاهدة اقامة محكمة دولية تحكم في جرائم الحرب وانضمت اليها «اسرائيل»، أو العكس. فكلاهما يعتقد انه فوق القانون. والأخيرة لا تكتفي برفض العقاب القانوني بل ترى ان من حق جنودها ان يُغيروا ويحتلوا ويقتلوا دون ان يُقتلوا ولا حتى في ساحة القتال. وتضرب الولايات المتحدة بالقانون الدولي عرض الحائط عندما يتعلق الامر بمعاملة المعتقلين من أسرى الحرب، وما داموا في قبضتها فهم في بلاد منزوعة القانون. التفرد والاحادية الامريكية وسلوك «الكاوبوي» او «ديرتي هاري» الذي ينفذ المهام بطريقته، ويترك الحكم على الفعل للنتائج لا للأخلاق والقوانين، والاحساس الامريكي بأن الولايات المتحدة ليست مسؤولة امام احد، لا تقدم تقريراً لأحد، ولا تتم مساءلتها دولياً في القضايا التي تثيرها فضائح سجن «ابو غريب» العجيب والتي تجعل الانحراف وسوء المعاملة تعذيبا وممارسة استعمارية عنصرية وخرقا للمواثيق الدولية.

وتعزية النفس بالمساءلة الامريكية الذاتية لا تكفي. فالادعاء ان أمريكا ديمقراطية ويسود فيها في النهاية حكم القانون على الاقل عقيم كعقم تحكيم الديمقراطية «الاسرائيلية» بما فيها محكمتها العليا في سلوك دولة لا تقبل بسريان مفعول معاهدة جنيف على الاراضي التي تحتلها. وما يبدأ سلوكا بربريا ينتهي تفوقا اخلاقيا ومعاناة نفسية وألما ثقافياً وغيره في مجتمع الاحتلال الذي يستهلك كل شيء، ولا ينجو من ثقافته الاستهلاكية أي شيء، بما في ذلك الفضائح. ولا يجوز لعاقل الاكتفاء بالتسريب الامريكي لوسائل الاعلام والذي جعله رامسفيلد موضوع مفاخرة، ولا بالجنود الذين تقدموا بشكوى، وبتعبير رامسفيلد عن اشمئزازه من هذه الافعال أمام لجنة كونجرس، ومحاكمة ستة جنود محاكمة عسكرية، واعتذار بوش. لا يجوز الاكتفاء بهذا كله لأن الوحدانية الامريكية والغطرسة والشعور الامبراطوري يضاف إليها عملية تقمص دور امريكا من قبل من يلبس زيها الرسمي في زمن الحروب تولد مثل هذا السلوك السادي في السجن. ولدي انطباع قوي لا استطيع له اثباتا انه لو اقتصر الامر على التعذيب الجسدي والعنف لتمكن الساسة ومستشاروهم وصحافيوهم من «لملمة الطابق»، ولكن لسبب ما تنعقد ألسنة السياسيين امام الفضيحة الاخلاقية، انهم يتلعثمون يصعقون ويعتذرون. لا تقتصر الزعزعة النفسية من هذه الصور على العرب والمسلمين، والارتباك والحرج الامريكي أوضح من الصور ذاتها. ولنذكر انه قتل احد المعتقلين متأثرا بجراحه التي سببها نهش الكلاب، وقتل آخر من الضرب، ولكن ما أثار الضجة الكبرى هو الصور المشينة. وما رأينا هو فقط ما شاهدنا، وهنالك كما يبدو الكثير الكثير مما

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

لم نشاهده. (ملاحظة: لا ينقصنا صور اغتصاب وتعذيب بشعة ليبتدع البعض صورا مزورة كأنه لا يكتمل لنا أمر دون اضافة ابداعية يقوم بها افراد يتلهون بإثارة حنقنا، اضافة لا تزيد بل تنقص. وكأن الأمر لا يتم دون بورنوغرافيا. هنالك كما يبدو فيما عدا المنحرفين الامريكان، منحرفون يستمتعون بصور التعذيب أيضا).

واذا كانت امريكا غير مسؤولة امام احد ولا تقدم حساباً لأحد يتقمص كل جندي من جنودها هذه الحصانة والمناعة. واذا كان هذا الجندي حثالة بشرية، او مجرد حالة وسطية معرضاً للدعاية العنصرية وكره العرب والمسلمين، واذا كان الضابط يشجعه، واذا كان جهاز المخابرات غاطسا حتى اذنيه في محاسبة الذات على عدم استخدام التعذيب والعنف الجسدي والتصفيات بشكل كاف قبل 11 سبتمبر/ ايلول اياه، فإن النتيجة هي ما رأينا في سجن «ابو غريب» العجيب. وتستمر مرحلة جلد الذات امريكيا على عدم استخدام العنف بشكل كاف ولوم الذات على عدم اطلاق يد المخابرات الامريكية بشكل كاف قبل عمليات 11 سبتمبر/ ايلول حتى اليوم في نفس لجان الكونجرس التي قلبت اللهجة وتعابير الوجه بعد فضائح ابو غريب. كانت النبرة مناقضة لما نسمع الآن.

وجاء ادعاء الرئيس الامريكي حول موبقاتٍ جنوده في العراق ان هذا السلوك ليس امريكيا un-American ليؤكد نفس العقلية التي حذرنا منها أعلاه التي توحد بين الفرد والدولة، بين الجندي والامبراطورية تجاه الخارج. ويؤكد بوش في مقولة السلوك غير الامريكي بشكل مقلوب، جوهر فرضية صراع الثقافات التي عبر عنها بعد 11 سبتمبر/ ايلول «بأنهم يكرهوننا بسبب كوننا نحن» او «بسبب اسلوب حياتنا» وهكذا. عداء لامريكا على نمط العداء للسامية، «يكرهوننا لأننا نحن»، ولا حل لهذه الكراهية اذا الا بالانتصار «عليهم». ويستمر هذ الهذيان القومجي الوطنجي المتخلف على لسان رئيس الدولة العظمى الوحيدة في العالم حتى عند الاعتذار. والعنصر الأبرز في هذ النمط من التعبيرٍ تأكيده وحدة امريكا، وأن هنالك سلوكاً امريكياً وغير امريكي. ان أسوأ ما يمكن ان تقوله عن سلوك اجرامي او غير أخلاقي او وحشي هو أنه سلوك غير أمريكي. بماذا كنا سوف نتهم لو قلنا عن سلوك زعران عرب انه سلوك غير عربي باعتبار العروبة خلاصة وجوهر الطيبة.

ولكننا اذا سقنا هذا الادعاء حول لا امريكية هذه التصرفات خطوة واحدة خارج هذه الغيبيات الى عالم الاستقراء، اي عالم التفاصيل والحقائق التفصيلية واختبار الفرضيةٍ بموجبها فسوف نجد ان هذا السلوك امريكي جداً (بلغة بوش- وليس لغتنا). والسلوك الوحيد «غير الامريكي» الذي تم هو النطق بالاعتذار، اما النقد الذاتي فما زال «غير امريكي». لأنه لم تتم عملية مراجعة نقدية وعملية نقد ذاتي للسلوك الامريكي ومعالجة جذوره. ونحن لا نقصد بالجذور الذهاب حتى برامج جيري سبرنجر التلفزيونية الشعبية والامريكية جدا التي ينفس فيها من يقومون بالحوار عن انفسهم بالضرب الجسدي للزوج او الصديقة او الزوجة امام الكاميرات وعلى خلفية تشجيع مقدم البرنامج وهتاف الجمهور المتعطش للعنف. بل نقصد ما يخصنا وهو الا تعرض شعوب باكملها للاحتلال ولممارسة مجندين يمكن تخيل العديد منهم كمشاركين نموذجيين في مثل هذه البرامج.

على كل حال يمارس التعذيب في السجون الامريكية ذاتها. وتقوم امريكا باستخدام العنف ضد الاسرى والمعتقلين خارج امريكا بشكل واسع النطاق. وجوانتانامو، وسجن «ابو غريب» لم يشهدا سلوكاً غير امريكي.

ومن الواضح ان الحديث لا يتم عن زمرة من الشباب السذج الذين تعاملوا مع السجناء بجهل لانهم ليسوا مدربين كسجانين، فهذا الادعاء يفترض ان المرء عندما لا يتلقى تدريبا كسجان ويترك على سجيته فإنه بسويته غير المدربة يندفع نحو التنكيل والتعذيب العنيف والمنحرف الطابع. ولكن أحد المشتبه في ارتكابهم جرائم التعذيب التي تسمى بلغة الادعاء «إساءة معاملة المعتقلين» كان يعمل حارسا في سجن بنسلفينيا. وقد عاد من حينه للعمل هناك. والتعذيب حي يرزق في السجون المدنية الامريكية ومراكز التوقيف. من ابرزها حالة التعذيب التي أدت الى محاكمة خمسة رجال شرطة امريكيين بتهمة الضرب واستخدام عصا في اغتصاب الشاب أبنر لويما في اغسطس/ آب .197، وأشهرها في السنوات الاخيرة استخدام التعذيب بشكل مكثف من قبل شرطة شيكاغو طوال النصف الثاني من السبعينات وبداية الثمانينيات، وقد استخدمت فيما استخدمت الصعق الكهربائي والحرمان من الاوكسجين و«الشبح» والتعذيب. وفي العديد من السجون الامريكية يستخدم نوع من الزنازين الاسمنتية الضيقة جداً secure living units يحجب فيها السجين لاعوام كفيلة بأن تفقد العديد عقولهم. وتتهم العديد من تقارير الامم المتحدة وتقارير امنستي انترناشيونال الشرطة الامريكية باستخدام «عنف يصل حد التعذيب». اما عن الاغتصاب فحدث ولا حرج. وما يدور في السجون الامريكية بعلم من ادارة السجن هو جريمة كبرى وتقرير Human rights watch يشير الى نسبة 21٪ من السجناء اجبروا على ممارسة الجنس و7٪ منهم مر بحالات اغتصاب. اي ان الحديث عن عشرات آلاف حالات الاغتصاب المستمرة والمسلم بوجودها أثناء وجود المعتقل في عهدة الدولة. وغالبا ما يهدد المعتقل بهذا الاغتصاب عند التحقيق، وغالبا ما يزج

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

بأولاد قاصرين في سجون البالغين.

وقد اتهمت الولايات المتحدة ببرامج حماية لمجرمين نازيين مثل كلاوس باربي للاستفادة من خبرتهم. ويذكر الصحافيون الامريكان دان ميتريون Dan Mitirion الذي عمل في البرازيل لمصلحة مكتب سلامة الجمهور office of public safety المخابراتي. وقد اختطف الرجل من قبل رجال عصابات التوباماروس tupamaros، حرب المدن، من الاورغواي وقتل على يدهم. واتضح فيما بعد أنه كان يدرب الشرطة البرازيلية على ادوات التعذيب التي لا تؤدي الى موت السجين مثل تعيير الصعقة الكهربائية بالحد اللازم، وبما في ذلك ادوات نفسية مثل اسماع السجين صراخ اطفال وامرأة يحسبه صراخ عائلته اثناء التحقيق.

اما عن ممارسة التعذيب في فيتنام فحدث ولا حرج، اذ لا يستطيع باحث الاحاطة بكمية المواد التي نشرت حول تقارير المخابرات والمخابرات العكسرية عن التعذيب، والادوات المختلفة التي ابتكرتها وكالة المخابرات الامريكية وطالبت بالسماح لها بتطبيقها، وتورطها في دعم ابحاث في بعض الجامعات لتطوير عقاقير وغيرها تستعمل في التعذيب.

التعذيب اذاً امريكي، وامريكي جداً. وانا استغرب من المعلقين النقديين الذين يذكروننا بأن ما جرى في ابو غريب هو استثناء امريكي، وان التعذيب هو القاعدة فقط عند العرب وفي السجون العربية. لا التعذيب عربي، ولا غياب التعذيب أمريكي. وما هذه المصطلحات الا من عدة صراع الحضارات التي أوصلت أمريكا الى دعم حرب على العراق لا مبرر لها الا الاكاذيب وسهولة تمريرها في ظل سيادة مفاهيم صراع الحضارات.

ولنعد الى افغانستان قليلاً. يذكر القراء اقتحام الامريكان وحلفاؤهم الافغان قلعة قندز. لقد استسلم في نوفمبر/ تشرين الثاني 2001 مقاتلو طالبان بعد قتال ضار. وقد اثار اشمئزازي في حينه بشكل خاص صورة جماعة من الصحافيين الذين «تمسحت» جلودهم يتسامرون مبتسمين وحولهم تنتشر الجثث مبعثرة. ماذا جرى بعد الاستسلام؟ تولى الأمر حلفاء امريكا الأفغان باشرافها، وحُمِّل المعتقلون في صهاريج شاحنات، اكرر صهاريج. وتم نقلهم الى معتقل شيبرجان. وعندما وصلوا السجن كانت تنبعث من الصهاريج رائحة تخلط الجثث بالبول بالدم. ووصفت ذلك بدقة قاسية مجلة ليموند ديبلوماتيك في سبتمبر/ ايلول 2002 وقبلها بتفصيل أقل نيوزويك في 26 اغسطس/ آب 2002 ويبدو ان جثث المئات اختلطت بعضها ببعض، وتم «التخلص من الدليل» اي من الجثث على بعد عشر دقائق سفر من السجن. هنالك ايضاً اعدم أكثر من 600 من رجال طالبان الذين بقوا على قيد الحياة. أي اعدم ايضاً شهود العيان. لقد قتلهم حلفاء امريكا الأفغان بحضور ضباط امريكان، اي باشراف امريكي. مثل حالة «الاسرائيليين» وهم يرعون الانتقام البربري ضد نساء وأطفال صبرا وشاتيلا.

لم تنحصر هذه المذابح اذا بالعرب ولا بـ«اسرائيل» ولا توقفت أمريكياً عند ماي لاي. بل افتتحت بها امريكا القرن الحالي، في اول حروب القرن، ثم في ثاني حروب القرن.

وقد اثار غضب اليسار الامريكي والليبراليين الأمريكيين بشكل خاص تصريحات راش ليمبو rush limbangh الجمهوري المحافظ الذي تعامل مع الفضيحة في برامجه الاذاعية الشهيرة التي تبث يومياً في مئات محطات الراديو رافضا الضجة او الحكم عليها بقسوة او الاعتذار. لقد قيمها على انها من عمل شباب يتلهون او يتسلون او يروحون عن انفسهم، وشبهها بممارسات الأخويات fraternities في الكليات الجامعية. وهذا عدا تأكيده ان اعتذار بوش كان مصطنعاً، وان بوش في داخله لا يرى مشكلة كبيرة في الامر، واضافة الى تحذيره المستمر من أن تؤدي هذه الحملة الى تكبيل ايدي الجنود في العراق. والرجل مؤيد لبوش ويظهر في تصريحاته فهماً امريكياً آخر لما جرى قد يكون أكثر انتشاراً من الاعتذار بين مؤيدي بوش.

ومن المفيد عدم الاستخفاف بما قاله ليمبو لا من ناحية ما يؤشر اليه ولا من ناحية التفسير الذي يقترحه. فأولاً يشير ليمبو الى ان اعتذارات بوش في نظر المحافظين هي اعتذارات اضطرارية محدودة الضمان. ومن ناحية اخرى فإن تفسيره للعنف ذاته يستحق وقفة تأمل عنده.

اذا كانت هذه الممارسات نمط تنفيس وتسلية فهذا مؤشر حضاري وثقافي مهم وعظيم الدلالة يلوح به محافظون متعصبون للثقافة الامريكية ويدافعون عنها كما يفهمونها. اما بالنسبة للأخويات فلا شك أنها تجمع شبابي ذكوري عنيف خاصة عندما يتعلق الامر بطقوس القبول في الاخويات في استعراض للقسوة كنوع من العبور الى مرحلة البلوغ يصلح لأن يقارن بطقوس العبور في الديانات البدائية passage rites والذي استمر في الديانات السماوية بشكلها الحاضر بشكل ومضمون مختلفين.

ولكن الاستعمار يتيح ممارسة طقوس البلوغ البدائية هذه على شعوب أخرى. وحالة «ابو غريب» ليست حالة تلذذ بتسبيب الألم فحسب ولا حالة انحراف «سادو- مازو» ولا حالة سوء معاملة ولا طقوس مرحلة البلوغ في مجتمع استهلاكي، وانما ما يهمنا فيها انها تصدر الى السياسة والى العلاقة مع الشعوب الاخرى في حالة قسر جسدي احتلالي، ما يعنينا بشكل خاص أنها حالة تعذيب وخرق للمواثيق والأعراف الدولية يقوم بها جنود يمثلون دولة وينفذون سياسة، أنها نتاج للوحدانية الامبراطورية يتكرر بأنماط مختلفة.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية